

العَدْلُ لَا يَنْفَقُ

لِكَيْتَ لَعْنَتُ رَبِّكَ شَارِدٌ وَنَجِي
يَعْلَمُ لَا شَيْءَ أَزْجَحُّ لِحَقِّ جَمْعِهِ

أمام المجتمع في أبهى الحلل وأجمل
اللفائن ، متخذين لزيئهم أغلى الحلى
وأرفع المحاسن ، ويقيمون الليالى الساهرة
والأمسيات الراقصة ويحيون حفلات
الشاي والكوكيتل ، تتلوها المآدب
والولائم فترمةهم الأعين بالاجلال

والاكبار ، وتؤخذهم الأنفس بين الغبطة والدهشة
والحسد والانبهار ... من كان يظن أن هؤلاء
السادة وأولئك السيدات ليسوا سوى مجرمين وجناة
وآفافيين متزيين بأزياء الأعيان واللوردات
والبارونات . منهم من تؤجر للتآجار بالسموم
والمخدرات ، ومنهم من يؤجر على القتل بدراهم معدودة .
وأظن هذه السيدة التى فقدت زوجها غدرآ واغتيالآ
هى التى سممتها فى أحد أركان الحانة تخاطب رجل
الأسرار بصوت خافت وأنفاس مخنقة وعينين
دامتين وقلب دائم :

« أين زوجى يا بوردرو ؟ رد على زوجى ! كيف
وقفت جوف الليل تنظر إليه وهو يقتل ؟ بل كيف
أقلت منك الخائن الذى جناها ؟ فأراد بوردرو أن
يتناول يد السيدة التى تخاطبه ، ولكن تلك السيدة
المجهولة انشنت عنه ووضعت قناعها ثانية وانكأَتْ
على المنضدة . وكان وجهها ممتعماً شاحباً كما بدا لى
من وراء القناع . وأما عيناها وأظنهما كانتا فى
العادة حلوتين رفيفتين فقد وجهتا إلى بوردرو نظرة
تفجع وتوجع ، وتأسف وتأنف ، لم يطمعها بوردرو
على جفونه وقسوته وجوده وكنوده وجعوده ،
فزوى وجهه عن تلك النظرات اللاذعات . وكان
على مقربة منا رجل وامرأة يتحادثان فقالت المرأة
للرجل :

لقد علمت ذلك السر العظيم من شففى الشقى
الصريع وهو على فراش موته ، فلو أننى أذعته ، وهو
ما يسوغه العدل والشرف ، لضاعفت هذه الاذاعة
عبء الكرب والبلاء على الفئة الذين هم أحب
خلق الله إلى وأعزهم على نفسى ، والذين حسبهم
ما هم فيه من هم وهم . فهل كان يليق بى أن أجلب
الحزى والمار والفضيحة والارتباك على جميع أولئك
الذين كانت تربطنى بهم أواصر الحب والوداد ، ولم
فى عتقى أطواق وأرباق ، لكثرة ما أولونى من من
وآلاء ؟

لقد تدبرت الأمر وعرضته على ضميرى أثناء
كان الشقى الصريع يؤدى اعترافه ساعة التزع ،
فرايت الطمع والاعراء ومعهما العدل نفسه فى صف ،
ولكننى رأيت الحب والأمانة وعرفان الجليل فى
صف آخر . فكانت هذه أغلب على قاي وأحوز لى .
ولما انجلي غبار هذه الموقفة العنيفة عن فؤادى توهج
ضميرى بشعاع مؤنس من الفرح والسعادة ، وبكيت
سروراً إذ جملت أحمد الله الذى وفقنى إلى اختيار
تلك الخطوة . لقد قتل ولكنه كان من قبل قاتلاً .
كنت أعلم أن هذا الحى من أحياء لندن ،
ما هو لا بالأعيان وذوى المسكاة المالية ، وأن الكثرة
الغالبية من ساكنى قصوره السيدة ومنازله الفاخرة
ذات الحدائق الناضرة والبساتين المشرقة ، ويظهرون

والأقراط ، فخلّيت بها جيدي وصدرى وأنا ملي ومماصى وأنا لا أعلم أنها زائفة إلا بعد أن تخليتم عني واضطرت لرهن بعضها وبيع البعض الآخر ، فإذا بها لا تساوى فلساً . لقد أرغمتني على الاتجار بالمخدرات سنوات عدة بعد أن طليتنى ودهنتني حتى صرت كواحدة من نجوم المجتمع اللامعة . فخرج الرجل الذي كانت توجه إليه هذا اللوم بالصمت عن لا ونعم !

وتأملتها بعد أن سميت اسمها وهو : ليلي^(١) وأنمت النظر في جسمها الذي لافضول فيه فأسفت على ما أصابها ، ولم أكن أملك لها خيراً ولا شراً وبعد أن طال صمت الرجل عقيب تهديده انفجر مرة أخرى وقال لها : عهدى بك رزينة يا ليلي كأختك فلبس^(٢) ولكنك الليلة تعمالين بالمثل السائر : « من راقه يذنه » كشف عن محاسنه ، ومن أعجبته رنات صوته رفع عقيرته « وقد اخترت لرفع عقيرتك مكاناً عاماً ، وهو فخ لأمثالي وأمثالك ، ومصيدة ...

وفي تلك اللحظة فتح باب الحانة وظهر فيه سواد مستر ميكائيل آرلين المؤلف الشهير ، تخفت أن يتعرف على فيهنك ستار التخفي الذي كنت مزوياً وراءه . فخوات وجهي ناحية أخرى وإن كنت واثقاً من تجهيل معارف في الزى الذي كنت به على ألسن الناس بي . ولحسن حظي رأيت مستر ميكائيل آرلين قد أنجبه إلى طائفة من الشباب اللاهين كانت تجمعهم تلك الحانة للعبث واللهو والمجون . وكان ذهن هذا المؤلف سريع الانفتاح إلى معاني

— نعم لك أن تلقى بي في الهاوية ، أو تدعني أندهور من حائق إلى الدرك الأسفل من حضيض الحياة بعد أن استغللتني أنت وأصحابك

— لقد أحسنت إليك بقدر ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ثم جاء دور غيرك . فمالك أن تخضع لأحكام القضاء والقدر ، وتلك الأيام يا ليلي نداولها بين الناس ، فلا تطمعي في أنصبة الناس بعد أن نلت نصيبك

ليلي — سأعمل على فضيحتكم ، وأظهر العالم على طريقة إجرامكم وكيف تأخذوننا نحن الفتيات من السوق فقيرات فتخلمون علينا ألقاب الشرف الكاذبة بين لادى هاجرة لوردها ، وبارونة من بارونها هاربة . ثم ...

فقال لها : إنك تعرفين الثمن الذي تدفعينه نقداً وعداً إذا شئت أن تستمتعي بتلك الحياة ثم غرق صوتهما في عباب الضوضاء . وسمعت السيدة المغنمة تعود إلى تكييف صاحبها الذي كانت تدعوه بوردررو قالت :

— لم تقل لي يا بوردررو الأمين ، يا بوردررو الوفي كيف أفلت منك الخائن الذي جناها ، وأنت بطل بيتنا ومانع حوزته ، وأنت الذي كنت ترى أنك تضعي حياتك في سبيلنا ، وأنت الذي كنت مناظ حبنا وتقتنا ..؟

ليلي — أريد أن تخفني ، إنك لا تعلمك ذلك في حانة عامة ، إن هذا المكان حافل بالشرطة السرية ورجال الخفية من كل لون ورتبة ودرجة ، ولعل واحداً أو اثنين أو أكثر يلتقفون الأقوال من أفواهنا . لقد خلعت على المقود والجواهر والخواتم

(١) فلة زهرة بيضاء عذبة

(٢) اسم الشوى بمعنى غصن

وانفرادك فلقد كنت توجست شرآ في استيفائك وبلاء. ولقد قرأت أسارى وجهك ونظرت في أعماق عينيك فرأيت فيها شواهد التكرودلائل السوء، وقد وقع المحذور والمكروه وكنت عليمه بوقوعه.

فقال بوردررو: فإلم تدفى عنه مادمت عليمه بوقوع المكروه كما تزعمين؟

فقلت: ولم لم تمت أنت، إذ أصابك الجدرى وكنت أعودك بنفسى وأنت في هذيان مُحْكَاك لا تعرفنى حتى جعلت تنادىنى وأنا بجانبك. فكل ما أصابنى منذ ذلك الوقت هو جزاء العدالة، أصاب قلبي الخبيث، قلبي الغيور الخبيث. وبلى ثم وبلى، لقد أقيت العقوبة، لقيت أصرم العقوبة، فهناك زوجى يتخبط في دمايه، قد قتل وأنت بجانبه ولكنك لا تريد أن تدل على قاتله.

في هذه اللحظة الرهيبة نظرت فلم أجد لبلى ولا صاحبها أو خانقها الذى كان يتوعد بها بالقتل إن هى وشت به وجماعته وعصابته، وكان الشرطيان بيل شاندلر وسيابك موليجان أحدهما يختال في ثوبه الرسمى، والآخر في زى أهل الفراغ والجدة، وهما يراقبان «الطيور الجارحة» من القنلة وأهل السطو الخفى والتجربى بالمخدرات. دق ناقوس الرقص إذاناً بنهاية الالف والدوران والجازبند في الدور الأول. وبمدهنية عادت الموسيقى إلى التوقيع وامتلات الحلقة المستديرة بالراقصين وبدأ تانجو من نوع جديد وبدأ كذلك اللمس والهمس والغمز واللمز ووزن الخطى على الأتنام

وإزاء تقدم خادم إلى بيل شاندلر الشرطى الرسمى وهمس في أذنه خبراً هاماً فذهب الشرطى إلى خزانة المسرة (كشك التليفون) ثم عاد منه مسرعاً وخرج

المرأة. وكانت أعصابه قوية الانفعال بمحدث النساء ولا سيما بعد أن نشر قصة «حتى الدودة تستطيع أن تسمى لرزقها» فقد آلت عواطف صديقاته من بنات إسرائيل... حتى الدودة تستطيع أن تسمى. لقد كانت قصة بشعة. إنها تدور حول قصر فاخر تقطنه أسرة إسرائيلية غنية، فدعى إليه مرات فغشيه زائرآ وراقصاً ومقاصراً ومنازلاً، فانضح له أمر عجيب وهو أن أهل القصر يعرضون شرائط صور متحركة فيها مناظر لا توصف، وقد يتلو العرض نوع من الأرحيات الأغريقية والرومانية، وقد أترى صاحب المنار وكان اسمه ليفيكو فصار لور ليفيكار أوف جيتار بفضل من سبقوه إلى مراتب المجد أمثال سيمون ميككنبرج وأولان مندلبرج ووان ساندولباوم وناثان كيرزون هاندلسون وجوبلم مايزنشتاين

فلم يشغل مرأى المؤلف بالى أكثر من لحظة، ثم تغلب صوت المرأة القنمة على صوت من عداها وهى تقول لبوردررو:

— لماذا دخلت بينى وبين زوجى؟ إنك لم تهدينا سوى الحزن والكمد والندم. لقد مكنت منه عدوه حتى قتله.. الندم الأليم جزاء ودنا ورحمتنا. ألم تك طفلاً بيتاً أول ما رأيتك وراك هو الذى كان غاية فى البر والنبيل وحسن النية. وقد كان من رأيه إرسالك إلى جهة أخرى ولكنى سأنته أن يقيق حماقة منى وسفها، وادعيت أنك تحبنا وصدقناك فقطع بوردررو صمته بكلمة واحدة فقال:

— لقد كنت صغيراً لا أعى شيئاً ولا أميز الخير من الشر، ولا أفرق بين الجرة والتمر.

فقلت السيدة:

بالرغم من صغر سنك إذ ذاك ومن ضعفك

إلى الطريق . فسأله صاحب الحانة مستر ما كيردو ،
أشهر « بوس » في ماربل آرش قائلا :

- حدث مهم يا حضرة الكونستابل ؟

- أي نعم ، فقد قتلت الفتاة إيلي أوميجان
هايل وهي الآن جثة هامدة على إفريز الشارع ، وقد
طمنت في قلبها بخنجر منسد هنيهة كأن قاتلها كان
ينتظر خروجها من الباب .

وكان المؤلف ميكائيل آراين يصنى إلى كل
كلمة تدور في الحديث بين صاحب الحانة وصاحب
الشرطة ، يكاد يرشف الألفاظ حرفاً حرفاً ،
ويقتبص المعاني خجراً خجراً ، وحتى لتراه وهو يستمع
إلى حديثهما عن المرأة القاتلة ، واليد الخفية التي
طمنت ، والقلب الصخري الذي قسا ، والفكر
الخبث الذي دبر مصرع المرأة ، كأنما يخيل إليه
أنه يرى قصة ما يسمع ، وأنه يشهد حادثة لا يصنى
إلى حديث . ولا ريب في أنه كان يضم
وضع قصة طريفة يجمع لها المشاهد ويحشد لها
الأقاويل كالنحلة التي تجنى من كل زهرة قطرة ، ثم
يزين له الخيال ما يزين فيضيف من وهمه إلى ما سمع
مالم يسمع . وكان يستزيد مما يسمع وهو مصغ ملذوذ
فيحمل صاحب الحانة والشرطي على الاطناب
والاسترسال ، حتى ينفض جملة ما في نفسه من
رواية الواقع أو مبتدعات الخيال

ولكن الشرطي كان عجولاً . بعد أن أنهى
خبر المفاجئة إلى المركز العام لم تبرأ ذمته ، ولن
تبرأ حتى يجمع الأدلة ويدونها في كذاشته . كذلك
المؤلف ميكائيل آراين فقد أخذ بدون ما سمع في
مفكرته ...

وإنه كذلك منهمك في كتابة ما وصل إلى
سمعه وذهنه من الأسماء والوقائع ، إذا بمستر دارك
نابط أوجاردور ، ذلك المحقق الخطير الذي يربض في
« فيلا سافوار تروث » بأعلى قمة في مقاطعة نورفولك
ولا يرد عاصمة الديار إلا نادراً . ولا يكون وروده
إلا مؤذناً بأمر من أهم الأمور في عالم الجنائيات الخفية ،
عالم الظلام والجريمة ، وقد استغاضت شهرته في
عواصم أوروبا وأمريكا الشمالية حتى كشفت شمس
كواكب الشهرة العالمية التي عرف بها أرسين لويان
وراهلز وموريس هيوبت ... فلم يكن يضارعه
أو يفوقه قليلاً سوى أستاذه ومرشده ومعلمه
الأول شيرلوك هولمز ، ولكن هولمز قد قضى
نحبه قبل موت صاحبه بأعوام وقد خلا الجولدارك
نابط أوجاردور فلا مزاحم ولا مبارز ، وقد ساعدته
طواله الحظ السعيد فأظهر حذقاً ومهارة تكاد
تكون من المعجزات ، لا من نبوغ الفن في
كشف الجرائم

فمعدت النواصي على الاعجاب بدارك نابط وصار
بطل الساعة ، وخضم اسكونلاند يارد الأول ، لأن
دأبه أن ينقض ما يرمونه وينفي ما يشبهونه ، ويكذب
ما يقطمون بصحته ولا يبالى ، لأنه لا يلبث أن يقيم
الأدلة الحاسمة على صدق نظره وصواب رأيه . ومن
ذلك لم تتوانى دهشة ولم يأخذنى عجب إذ رأيت
هذه السيدة المتقدمة تلجأ إلى دارك نابط فتمهد إليه
بقضيتها ليكشف بقوة ذكائه الخارق أسرارها
الغامضة ، فيرشدها إلى الجاني الذي تحوم حوله
شبهاتها ، ولا تستطيع أن تقيم عليه الدليل

تبدأ حوادث هذه الجريمة في بلدة نيدلهام من

ومراجع سداها فاذا بهذا الزعيم المائلي ، ورئيس
الأمرة الجادة المجدة مغفراً بتراب الأرض مضرراً
بدمائه ، مكفناً بثيابه التي كان يختال فيها منذ برهة .
ولم يمتروا في مكان القتل على أثر للفاعل الشرير الذي
انتهز بلاريب خلو المكان ، فصوب فوهة طبنجته
إلى صدر الرجل ضامناً القضاء عليه حتى لا يشي به
ولا يبوح باسمه

واتصل الخبر برجال الشرطة وأعوان سكوتلاند
يارد ، وكان من خبثتهم ما يكون في مثل
تلك الحال فانتقلوا بقضيمهم وقضيتهم وأدوات مجثمهم
وآلات فخصهم ، وبشوا عيونهم وأرصادهم ووزعوا
آذانهم توزيع الماء في الفيضان ، ولكنهم وأسفا
عادوا بالخيبة وباؤوا بالحسرة ولم يوقفوا إلى إثبات
التهمة على أحد . غير أن واحداً من أقوى أعداء
الرجل حامت حوله الشبهات وكان صديقاً حميماً
لبوردرو الذي رباه القتل وأنفق عليه وتمهده منذ
الصبا إلى تمام الرجولة وجعله موضع ثقة وموطن
أمانته . ولكن بوردرو الذي لا تشك أسرة الصريع
في علمه بشخصية القاتل وقدرته على إقامة الأدلة
على جنائنه ، غادر البلدة ولم يمد إليها وفضل أن
يعيش على هامش الحياة في لندن ، على أن يقضى
بقية أيامه في مسقط رأسه ومستقر أصدقائه ومواليه
ومن بينهم تلك السيدة ، وهي لا تزال دائبة في البحث
والتنقيب ، وقد ضرب لها دارك نابط أوخارد موعداً
في هذه الحانة ليتمكن من رؤية الرجل الذي تظن أنه
يعرف قاتل زوجها . فلما دخل من الباب ووقع
بصره على الرجل والراة التي تحاول تليين قلبه
ليعترف لها بما يعلم تقديراً لجميلها وجميل زوجها في
معاملته تجاهلها ثم خرج وعاد متزيياً بزى سكير

مقاطمة يوركشير حيث توطنت أمرة كبيرة العدد
من نيف وثلاثين عاماً ، وانقطع أعضاء تلك الأمرة
إلى الزرع والضرع والحراث والغرس والرى والسقيا
والجمع والحصد ، والاتجار في الحبوب والأنعام
والأصواف ، وتربية الدواجن ، وترويض الجياد
لكسب قصب السبق في مضمار داربي القريب من
موطنهم . وبالجملة كانوا أمرة لا تعرف اللهو واللعب ،
ولا تضيع الأوقات في غير ما يمود على أفرادها
بالخير والمنفعة ، حتى أصبحوا مثلاً يحتذى وقدوة
تتبع في الجد والاجتهاد والحرص على المال والحذق
في تكوين الثروة . وكان أرجوس كوبلاند
براكنبري أظهر أفرادها مشهوراً بالشدة ، فكثير
عدد أعدائه الذين يضررون له السوء ويخفون نية
الانتقام لثارات لا يعلمها إلا ذووها ممن ربوها في
صدورهم ونموها في أفئدتهم . ومن العجب العاجب
أنه لم يسمع قط يتلفظ بكلمة خشنة ، ولكنه كان
لا يتبذل مع أتباعه ، وكان يتلطف في معاملة الأمة
السوداء كما يتلطف في معاملة الأميرة العصماء ، ولم
يكن يخطر ببال أحد أن يتجرأ عليه تجرؤاً منكراً .
وكان أرجوس كوبلاند براكنبري يضطر أشد
الخلق صاعقاً وكبراً إلى الكف عن غلوائه بما يصوب
إليه من قوارص النهيم ، فقد كان له في ذلك مذهب
يجمل الناس منه على أشد الحنافة والحذر . ومما قيل
عنه إنه كان يحب الترويس على كل مجلس يضمه

وفي مساء يوم من الأيام سمع أهل البلدة التي
كان يقيم فيها ذلك الرجل وهي نيدلهم بمقاطمة
يوركشير طلقات نارية تترى ، فلما زال الجود
الذي يتلو وقوع الكارثة ، وقضى على الدهشة التي
تعقب كبار الحوادث هرع الناس إلى مصدرها

لا يفتق وإن يكن من أهل الأنافة ، وأوما إلى السيدة أن تذهبي فتنحت ، وجلس إلى جانب بوردرود الذي لم يعرفه

وتبادلا النظرات فالحدث فالمسافة . وبدأ دارك نابط يروي لبوردرود بعض حوادث من مبتدعات الخيال يومه أنها من مغامراته وأنه كان يطالها إلى أن سال لعاب بوردرود ، فروى له الحادثة الآتية : لو أسرع الخطى منذ هنية لاصطدمت هنا بامرأة تهمني بالقتل وأنا منه برىء وتتذلل إلى وتستمطني وتعفني وتذكرني بالماضي السحيق . وقد قتل زوجها ولم يكن إلا قاتلا رجلا آخر استولى على ثروته وكان من الحذق بحيث لم يكشف عن جريمته أحد ، ومضى على هذه الجريمة أعوام وأشهر وأيام ، وظن القاتل وهو زوج تلك المرأة الملحة أن ستار النسيان قد أسدل على الجريمة والمجرم ... ولكن شقيق القاتل كان لا يزال يذكرها ممّا ، وكان بعد الأيام والساعات ويحصى الدقائق والثواني ويتحفز للانتقام ممن اعتقده قاتل أخيه ، وكان يعمل ولا يهمل ، كأنه القضاء المبرم ، وكأن القضاء المبرم أراد أن ينزل به في أسعد أوقات حياته ، فالتصّل به وصادقه وصافاه ، حتى أمن القاتل جانبه ، ونصح إليه بالزواج فتزوج وشاركه أفراحه ، وصحبه إلى باب غرفة الزفاف كأعز صديق يقضى مع صديقه آخر أوقات العزوبة إشاركة مسرته

ولما سئحت له فرصة القضاء عليه وهو على أتم ما يكون صحة ومالا وجاهاً وأمناً على نفسه وفرحاً بزواجه وولده ، استل روحه من بين جنبه

فضحك دارك نابط وهو يتظاهر بالسكر وقال :

وما دخلك أنت أيها النبي في هذا الأمر ؟

لا يد لك فيها ثبت يداك . لا تحدثني عن نفسك إلا حديثاً فيه قتل كنت أنت بطله .

فقال بوردرود : إنك لم تفهم شيئاً . ألم أقل لك إن الشقيق هو الذي قتل وإنني الذي مهدت سبيل القتل ، باختيار الساعة التي كان فيها القتل وحيداً والطريق خالياً . وقد كان نصيبي من تلك الحادثة مكافأة قبضتها بعد مرور عام على حفظها في سجل الشرطة ونسبتها مؤقناً إلى قاتل مجهول فأبرقت أسرة دارك نابط ولمت عيناه . وقال له : وما عليك إذا كنت تصيب مكافأة جديدة لا يعرف سبيلها سوى ؟

خملق بوردرود في محبته ، فاستمر الرجل : — أي نعم ، أكتب تقريراً مطولاً يبعث به أحد أصدقائنا إلى رجال الشرطة فينفجحونك منحة لا بأس بها ، ولا غبار عليك ولا حرج . فضحك بوردرود حتى بانت نواجذه . . وقال : لقد كتبت ورقة كهذه واجتهدت أن أدفع عن نفسي المسؤولية ما أمكن ذلك . وها كها :

فضحك دارك نابط وقال : وأنا أعددت لك المكافأة وها كها . وأخرج من جيبه « جامعة » الحديد ، وقبل أن يستفيق بوردرود من دهشته ، ليدرك ما حل به كانت يدها مقيدتين في الأغلال وكان رهن رجال الشرطة الذين كانوا يحيطون به من كل جانب .

وكان المؤلف ميكائيل آرلين يهدف السمع ويصوب البصر ليقف على هذا الحادث الجديد بالتفصيل ، فما كان يصبر على أن تفوته طرائف الحانات في هذه الليلة الحافلة بالحوادث

محمد لطفي محمد